المحاضرة الثالثة: علم العمران البشري: موضوعه وقوانينه.

في المحاضرة السابقة، تناولنا كتاب "المقدمة" لابن خلدون بوصفه إنجازاً فكرياً فريداً. اليوم، نتعمق في القلب النابض لهذا الإنجاز :**علم العمران البشري**، الذي يمكن أن نعتبره دون مبالغة العلم الذي أسسه ابن خلدون وأبدع فيه.

لم يكتفِ ابن خلدون بأن يكون مؤرخاً يسرد الأحداث، بل أراد أن يكون عالماً يفسرها. أراد أن يكتشف **القوانين الثابتة** التي تتحكم في مسيرة المجتمعات والدول، كما يكتشف العالم قوانين الطبيعة. من هذا المنطلق، ولد "علم العمران البشري."

(1) التعريف بعلم العمران البشري: المفهوم والمصطلح

أولاً: التعريف الخلدوني

عرّف ابن خلدون علمه الجديد في مستهل "المقدمة" بقوله:

"هذا العلم... عزيز المذهب، غزير الفائدة، أعني أنه **علم يعرف به ما يعرض في طبيعة ذلك العمران من الأحوال**، مثل التوحش والتعصب، والتئام الأمة وانتشار الخلق، ونحو ذلك من العوارض الذاتية للعمران".

ويوضح في موضع آخر أن موضوعه هو:

"أحوال العمران والاجتماع الإنساني، وما يعرض في طبيعة ذلك العمران من الأحوال".

ثانياً: تحليل المفهوم

- **العمران** :لا يعني فقط البناء المادي، بل يعني **التعمير** بمعناه الشامل: استقرار البشر، وتكوين المجتمعات، وبناء المدن، وممارسة الاقتصاد، وتأسيس الدول. هو كل مظهر من مظاهر الحياة الاجتماعية المنظمة.
- **البشري** :يؤكد على أن موضوع العلم هو المجتمع الإنساني، بكل ما ينطوي عليه من علاقات وتفاعلات.
- **العوارض الذاتية** :أي الخصائص والسمات الملازمة والضرورية للعمران، والتي تظهر حتماً كنتيجة طبيعية لطبيعته، كالتعصب (العصبية) والتوحش والترف.

(2) موضوع علم العمران البشري: ما الذي يدرسه هذا العلم؟

يمكن حصر الموضوعات الأساسية التي تناولها علم العمران الخلدوني في المحاور التالية:

المحاضرة الثالثة: علم العمران البشري: موضوعه وقوانينه.

1. **أشكال العمران الأساسية** :يدرس العلم طبيعة ونشأة وتطور النمطين الرئيسيين للحياة الاجتماعية:
   - **العمران البدوي** :(حياة البادية) وخصائصه من قوة العصبية، وقلّة الحاجات، والخشونة، والشجاعة.
   - **العمران الحضري** :(حياة المدن) وخصائصه من ضعف العصبية، وكثرة الحاجات، والترف، وتقسيم العمل، وازدهار العلوم والصنائع.
2. **نشأة الدولة وتطورها وسقوطها** :هذا هو المحور الرئيسي. يدرس العلم:
   - كيف تنشأ الدولة؟ (عبر العصبية).
   - ما مراحل تطورها؟ (من البساطة إلى الترف).
   - لماذا تسقط؟ (ضعف العصبية، الإفراط في الضرائب، الترف والانحلال).
3. **الظواهر الاجتماعية والاقتصادية** :يهتم العلم بتحليل:
   - **العصبية** :كقوة اجتماعية وسياسية محركة.
   - **الاقتصاد** :نظريات الكسب، والقيمة، والعرض والطلب، وأثر الضرائب.
   - **المعرفة** :كيف تنشأ العلوم وتنتشر في المجتمعات المتحضرة.
4. **العلاقة بين البيئة والمجتمع** :يربط العلم بين طبيعة المجتمع (أخلاقه، طبائعه، قوته) والبيئة الجغرافية والمناخية التي يعيش فيها.

(3) قوانين علم العمران البشري: السُّنن الخلدونية الثابتة

هنا تكمن عبقرية ابن خلدون: في صياغته لقوانين اجتماعية شبه حتمية، تشبه "سنن الله في الكون". وهي ليست قوانين رياضية صماء، بل هي **اتجاهات عامة وسنن طبيعية** تتحكم في دورة حياة المجتمعات.

القانون الأول: قانون العصبية (المحرك الأساسي للتاريخ)

- **مضمونه**" :لا تتم الدولة ولا تقوم إلا بالعصبية". لا يمكن أن تقوم دولة أو ملك إلا بوجود رابطة قوية (نسب، دم، حلف) تخلق تضامناً جماعياً يُمكّن الجماعة من السيطرة والدفاع عن مكاسبها.

- **تطبيقه :**القبيلة ذات العصبية الأقوى تنتصر على القبيلة ذات العصبية الأضعف، وتستولي على الحكم. العصبية هي "وقود" الدولة عند نشأتها.

القانون الثاني: قانون تحول البداوة إلى حضارة

- **مضمونه" :**البداوة أصل الحضارة". الدول لا تنشأ في المدن المتحضرة، بل تنشأ في البوادي والصحاري، حيث تكون العصبية قوية والحياة بسيطة. ثم تنتقل القبيلة المنتصرة إلى الحضر لتحكمه، وتتحول من بداوة إلى حضارة.

- **تطبيقه :**القبائل البدوية القوية تغزو المدن المتحضرة) التي ضعفت عصبيتها due to الترف (وتؤسس دولة جديدة.

القانون الثالث: قانون دورة حياة الدولة (أجيال الدولة الثلاثة)

- **مضمونه" :**للدول أعمار طبيعية كما للأشخاص". تمر الدولة بثلاثة أجيال، كل جيل يقضي حوالي 40 سنة:

1. **جيل التأسيس :**جيل البداوة والقوة، حيث يكون الحاكم متحالفاً مع أصحاب العصبية، يسوسهم بالعصبية نفسها. الهمة عالية، والعدل سائد.
2. **جيل الاستقراروالترف :**جيل ينتقل من البداوة إلى الحضارة، يستأثر بالسلطة وينفرد بها، ويبدأ في الترف والإنفاق والبذخ. تبدأ العصبية في الضعف، لكن الدولة لا تزال قوية.
3. **جيل الانحلال والتفكك :**جيل الترف والانهيار، ينسى فيه الحكام مرحلة البداوة والقوة، وتضعف عصبيتهم تماماً، ويصبحون عاجزين عن الدفاع عن دولتهم، فينهارون أمام أي غازٍ جديد ذي عصبية قوية.

- **تطبيقه :**يفسر هذا القانون الصعود والهبوط المتكرر للدول عبر التاريخ، ليس فقط في العالم الإسلامي، بل في كل الحضارات.

القانون الرابع: قانون العلاقة بين نمط العيش والأخلاق

- **مضمونه" :**أخلاق الناس تابعة لمعاشهم". طبيعة حياة الناس (بدوية أم حضرية) تحدد طبائعهم وأخلاقهم.

- **البدو** :أقوى أجساماً، أشجع قلباً، أعز أنفساً، لقسوة عيشهم واعتمادهم على الذات.
- **الحضر** :أضعف أجساماً، أجبن قلباً، due toالاعتماد على الآخرين (تقسيم العمل) وطول الأمن والترف.

القانون الخامس: قانون الترف والانحلال

- **مضمونه**" :الترف غاية العمران، وهو مؤذن بفساده". عندما تبلغ الحضارة ذروة ترفها ورخائها، تبدأ في الانحدار. الترف يؤدي إلى:
  - ضعف الأخلاق والهمم.
  - الإسراف والتبذير وضرورة زيادة الضرائب.
  - انهيار القيم التي قامت عليها الدولة.
  - ضعف القدرة الدفاعية.

القانون السادس: قانون اقتصادي (أثر الضرائب في الإنتاج)

- **مضمونه**" :إذا كانت المظالم والضرائب كثيرة، قلت أسباب الاكتساب". الإفراط في الجباية (الضرائب) يقتل الحافز لدى المنتجين والتجار، مما يؤدي إلى كساد الأسواق، وانهيار النشاط الاقتصادي، وبالتالي تناقص إيرادات الدولة نفسها على المدى الطويل.

(4) منهجية علم العمران: كيف وصل ابن خلدون إلى هذه القوانين؟

لم تكن هذه القوانين نتاج تأمل فلسفي مجرد، بل اتبع ابن خلدون منهجية علمية دقيقة:

1. **الملاحظة والتجربة الحسية** :اعتمد على ملاحظته المباشرة لأحوال المجتمعات في شمال إفريقيا والأندلس، وخبرته العملية في شؤون الحكم.
2. **الاستقراء** :جمع كمّاً هائلاً من الوقائع والأحداث التاريخية، ثم قارن بينها ليكتشف القواسم المشتركة والأنماط المتكررة.
3. **الاستنباط** :بعد أن اكتشف القوانين العامة (الكلّيات)، استخدمها لتحليل وتفسير الأحداث الجزئية والتنبؤ بمساراتها.

4. **النقد التاريخي** :لم يقبل الروايات التاريخية إلا بعد عرضها على "ميزان" قوانين العمران. فما وافق طبائع العمران قبله، وما خالفه رده.

(5) الخاتمة: علم العمران... علم المستقبل

إن قوانين علم العمران البشري التي صاغها ابن خلدون ليست حبيسة الماضي. إنها تقدم لنا عدسة قوية يمكن من خلالها قراءة حاضرنا واستشراف مستقبلنا. فهي تساعدنا في فهم:

- ديناميكيات صعود وسقوط القوى العظمى.
- أسباب استقرار بعض المجتمعات وانهيار أخرى.
- العلاقة الجدلية بين الاقتصاد والأخلاق والسياسة.

علم العمران البشري هو تأكيد على أن المجتمعات الإنسانية، رغم تعقيدها، تخضع لسُنن وقوانين يمكن دراستها علمياً. وهو شهادة خالدة على سبق الفكر الإسلامي وإسهامه المؤسس في بناء صرح العلوم الاجتماعية